التلازم بين الظاهر والباطن والرد علي المرجئة

أبو سلمان الغليفي من كتاب التنبيهات

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

قد أنكرت المرجئة المعاصرة التلازم بين الظاهر والباطن أو بين إيمان القلب وعمل الجوارح وقالت بعدم التلازم بينهما ، بل وادعت زورًا وبهتانًا وتدليسًا وتلبيسًا على الشباب أنه لا تلازم ، ويمكن أن يكون هناك إيمان في القلب ولا يظهر على الجوارح مع القدرة التامة والتمكن ولذلك يجوز - عندهم - أن يكون هناك قول قلب : وهو التصديق والقبول والانقياد الإذعاني ، وعمل قلب : من الخوف والرجاء والمحبة والتوكل والإنابة ، وغير ذلك من إيمان القلب وقوله وعمله ، ولا يظهر من ذلك شيء على الجوارح ، ويكون مسلمًا مؤمنًا بذلك ولا يدل تركه للعمل على فساد باطنه؟

وقد بين العلماء والسلف الكرام قاعدة التلازم بين الظاهر والباطن وردُّوا على المرجئة وقد توسع شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في الرد على المرجئة وبين فساد مذهبهم : " والمقصود بيانه أن ظاهر المرء - عند أهل السنة - هو الوجه الآخر لقلبه وباطنه ، وأنه انعكاس مباشر له ، لا يتخلف عنه ولا يغايره ، وأنه من المحال والممتنع شرعًا وعقلاً أن يكون الباطن على حال بينما يكون الظاهر على حال آخر ، ولكن إذا كان الباطن صالحًا كان الظاهر صالحًا بحسبه ، وإن كان الباطن فاسدًا كان الظاهر كذلك فاسدًا بحسبه ...

وهذا لا يتخلف إلا في حالتين ذكرهما الله لنا في القرآن :

الأولى : حالة الإكراه ، مع أنها حالة مؤقتة وغير مستمرة وتزول بزوال العارض ، وترجع إلى ما كانت عليه من اطمئنان القلب بالإيمان وعمل الجوارح بمقتضى هذا الإيمان فكل من " أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ" سرعان ما يزول بزوال الإكراه.

والحالة الثانية : حالة المنافق كما قال تعالى في سورة الفتح : " يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ " فغير ذلك يتلازم الظاهر والباطن ولا يتخلف إلا في حالة الإكراه والمانع والنفاق.

الأدلة على التلازم

بين الظاهر والباطن وفهم السلف لهذه الأدلة

1- يقول الله تعالى : " وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ" .

2- قوله سبحانه : " لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْمُفْلِحُونَ" ونحوها.

3- قول الله : " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (3) أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً "

4- قول النبي : " ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب "
5- قول النبي : " لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم لسانه ، ولا يستقيم لسانه حتى يستقيم قلبه "

فهم السلف لهذه الأدلة وبيان فساد مذهب المرجئة

وهذه حقيقة جاءت الأدلة الشرعية بإثباتها ، وترتيب الأحكام عليها - وقد أدرك " ضرورة ذلك المنافقون ، فكانوا يُظهرون العمل بشرائع الدين - ومع أن الأصل هو عقد القلب وإيمانه - كما سبق – وأنه لا يلزم من عمل الظاهر إيمان الباطن ، فإن أعمال المنافقين لم تنشأ عن إيمان في الباطن ، ولكن يلزم من إيمان الباطن أن يعمل الظاهر ، وهذا ما نريد إيضاحه في هذه المسألة التي غفلت عن حقيقتها المرجئة .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في معرض كلامه عن كفر تارك الصلاة وقتله كفراً وردة : " فهذا الموضع ينبغي تدبره ، فمن عرف ارتباط الظاهر بالباطن زالت عنه الشبهة في هذا الباب وعلم أن من قال من الفقهاء أنه إذا أقر بالوجوب وامتنع عن الفعل لا يُقتل أو يُقتل مع إسلامه ، فإنه دخلت عليه الشبهة التي دخلت على المرجئة والجهمية ، والتي دخلت على من جعل الإرادة الجازمة مع القدرة التامة لا يكون بها شيء من الفعل ، ولهذا كان الممتنعون من قتل هذا من الفقهاء بنوه على قولهم في مسألة الإيمان وأن الأعمال ليست من الإيمان ، وقد تقدم أن جنس الأعمال من لوازم إيمان القلب ، وأن إيمان القلب التام بدون شيء من الأعمال الظاهرة ممتنع سواء جعل الظاهر من لوازم الإيمان أو جزءاً من الإيمان " .

وزيادة للتوضيح حتى لا يفهم كلام شيخ الإسلام على غير مراده ويظن أن كلمة تام من الكمال والتمام وليس من شرط الصحة أو الإيمان الصحيح ، وضح الشيخ هذه الكلمة في مواضع أخرى فقال : " ومن الممتنع أن يكون الرجل مؤمناً إيماناً ثابتاً في قلبه بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ، ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة ولا يصوم من رمضان ولا يؤدي لله زكاة ولا يحج إلى بيته ، فهذا ممتنع ولا يصدر هذا إلا مع نفاق في القلب وزندقة لا مع إيمان صحيح " .

وكذلك قوله – رحمه الله – في شرح العمدة : " فإن الإيمان عند أهل السنة والجماعة : قول وعمل كما دل عليه الكتاب والسنة وأجمع عليه السلف ، وعلى ما هو مقرر في موضعه.

والقول: تصديق الرسول ، والعمل تصديق القول ، فإذا خلا العبد عن العمل بالكلية لم يكن مؤمنا ....فإن حقيقة الدين هو الطاعة والانقياد وذلك إنما يتم بالفعل لا بالقول فقط ، فمن لم يفعل لله شيئا فما دان لله دينا ، ومن لا دين له فهو كافر " .

فهل هناك كلام أوضح من ذلك في كفر تارك العمل بالكلية مع القدرة التامة : " فإذا خلا العبد عن العمل بالكلية لم يكن مؤمنا .... ، فمن لم يفعل لله شيئا فما دان لله دينا ، ومن لا دين له فهو كافر " هل تجد أوضح من هذا الكلام في كفر تارك العمل ؟

ويقول الشيخ الهمام مفتي الأنام شيخ الإسلام أحمد بن عبد السلام – رحمه الله – :
" وهنا أصول تنازع الناس فيها : منها أن القلب هل يقوم به تصديق أو تكذيب ولا يظهر قط منه شيء على اللسان والجوارح ، وإنما يظهر نقيضه من غير خوف ؟ فالذي عليه السلف والأئمة وجمهور الناس أنه لا بد من ظهور موجب ذلك على الجوارح ، فمن قال : إنه يصدق الرسول ويحبه ويعظمه بقلبه ولم يتكلم قط بالإسلام ولا فعل شيئًا من واجباته بلا خوف ، فهذا لا يكون مؤمنًا في الباطن ، وإنما هو كافر ، وزعم جهم ومن وافقه أنه يكون مؤمنًا في الباطن ، وأن مجرد معرفة القلب وتصديقه يكون إيمانًا يوجب الثواب يوم القيامة بلا قول ولا عمل ظاهر ، وهذا باطل شرعًا وعقلاً كما بسط في غير هذا الموضع ، وقد كفَّرَ السلفُ كوكيع وأحمد وغيرهما مَن يقول بهذا القول ، وقد قال النبي : " إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " ، فبين أن صلاح القلب مستلزم لصلاح الجسد ، فإذا كان الجسد غير صالح دل على أن القلب غير صالح ، والقلب المؤمن صالح ، فعلم أن من يتكلم بالإيمان ولا يعمل به لا يكون قلبه مؤمنًا حتى إن المكره إذا كان في إظهار الإيمان فلابد أن يتكلم مع نفسه وفي السر مع من يأمن إليه ، ولابد أن يظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، كما قال عثمان ، وأما إذا لم يظهر أثر ذلك لا بقوله ولا بفعله قط فإنه يدل على أنه ليس في القلب إيمان " أ.ه .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية :
في موضع أخر مبينًا كفر من ترك العمل بالكلية والتلازم بين الظاهر والباطن : " متى ثبت الإيمان في القلب والتصديق بما أخبر به الرسول وجب حصول مقتضى ذلك ضرورة ، فإنه ما أسر أحدٌ سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، فإذا ثبت التصديق في القلب لم يتخلف العمل بمقتضاه البتة ، فلا تستقر معرفة تامة ومحبة صحيحة ولا يكون لها أثر في الظاهر ، ولهذا ينفي الله الإيمان عمن انتفت عنه لوازمه ، فإن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم كقوله تعالى : " وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ " ، وقوله : " لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ " ، ونحوها فالظاهر والباطن متلازمان لا يكون الظاهر مستقيًا إلى مع استقامة الباطن ، وإذا استقام الباطن فلابد أن يستقيم الظاهر ولهذا قال النبي : " ألا أن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب" وقال عمر لمن رآه يعبث في صلاته " لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه " وفي الحديث : " لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم لسانه ، ولا يستقيم لسانه حتى يستقيم قلبه " ولهذا كان الظاهر لازمًا للباطن من وجه وملزومًا له من وجه " ا.ه

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية ردًا على جهم وأتباعه من المرجئة المعاصرة في نفي التلازم بين الظاهر والباطن : " ولهذا ظن طوائف من الناس أن الإيمان إنما هو في القلب خاصة ، وما على الجوارح ليس داخلاً في مسماه ، ولكن هو من ثمراته ونتائجه الدالة عليه حتى آل الأمر بغلاتهم - كجهم وأتباعه - إلى أن قالوا: يمكن أن

يصدق بقلبه ولا يظهر بلسانه إلا كلمة الكفر ، مع قدرته على إظهاره فيكون الذي في القلب إيمانًا نافعًا في الآخرة ، وقالوا حيث حكم الشارع بكفر أحد بعمل أو قول فلكونه دليلاً على انتفاء ما في القلب وقولهم متناقض ، فإنه إذا كان ذلك دليلاً مستلزمًا لانتفاء ما في القلب امتنع أن يكون الإيمان ثابتًا في القلب مع الدليل المستلزم لنفيه ، وإن لم يكن دليلاً لم يجز الاستدلال به على الكفر الباطن.

والله سبحانه في غير موضع يبين أن تحقيق الإيمان وتصديقه بما هو من الأعمال الظاهرة والباطنة كقوله تعالى: " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ " إلى أن قال - رحمه الله - فإن قال قائل : هذا يدل على أن الإيمان ينتفي عند انتفاء هذه الأمور لا يدل على أنها من الإيمان ، قيل هذا اعتراف بأنه ينبغي الإيمان الباطن مع عدم مثل هذه الأمور الظاهرة فلا يجوز أن يدعي أن يكون في القلب إيمان ينافي الكفر بدون أمور ظاهرة : لا قول ولا عمل وهو المطلوب وذلك تصديق ؛ وذلك لأن القلب إذا تحقق ما فيه أثَّر في الظاهر ضرورة ، ولا يمكن انقطاع أحدهما عن الآخر ، فالإرادة الجازمة للفعل مع القدرة التامة توجب وقوع المقدور وإذا كان في القلب حب الله ورسوله ثابتًا استلزم موالاة أوليائه ومعاداة أعدائه " لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْمُفْلِحُونَ " وقال سبحانه : " إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ " ، وقال : " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ". إلى غير ذلك من الأدلة الصريحة في أن إيمان القلب شرط في الإيمان ، ولا يصح الإيمان بدونه ، وأنه إذا وجد سرى ذلك إلى الجوارح ولابد : فالإيمان أصله معرفة القلب وتصديقه وقوله ، والعمل تابع لهذا العلم والتصديق ملازم له ، لا يكون العبد مؤمنًا إلا بها " ا.هـ

ويقول - رحمه الله - مبينًا أن العمل الظاهر لازم وشرط للعمل الباطن كلزوم الروح للجسد ولا يتصور جسد بلا روح ولا حياة بلا ماء ولا هواء وليس هو فرض فقط أو واجب فقط ؛ بل هو لازم وملزوم ، وشرط ومشروط ، وركن وأصل ، وإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم ، وإذا زال الركن انهدم الأصل ، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط.

قال ـ رحمه الله ـ في بيان أن فساد الظاهر دليل على فساد الباطن

" العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه ، وانتفاء الظاهر دليل على انتفاء الباطن ... وما كان في القلب فلابد أن يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح ، وإذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه دل على عدمه أو ضعفه ، ولهذا كانت الأعمال الظاهرة من موجب إيمان القلب ومقتضاه ، وهي تصديق لما في القلب ودليل عليه وشاهد له "

وقد مر معك قوله في شرح العمدة وتكفيره تارك العمل بالكلية : " فإذا خلا العبد عن العمل بالكلية لم يكن مؤمنًا ... فما دان الله دينًا ومن لا دين له فهو كافر "( ) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في شرح حديث النعمان مبينًا التلازم بين الظاهر والباطن وأنه إذا نقص الباطن نقص الظاهر ، وإذا فسد ، فسد ، وإذا زال الباطن زال الظاهر بالكلية قال : " ثم القلب هو الأصل ، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة ، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب ولهذا قال النبي في الحديث الصحيح " ألا إن في الجسد مضغة ... الحديث " فإذا كان القلب صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملاً قلبيًا لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق كما قال أهل الحديث : قول وعمل ، قول باطن وظاهر ، وعمل ظاهر وباطن ، والظاهر تابع للباطن ولازم له ، متى صلح الباطن صلح الظاهر ، وإذا فسد فسد ، والإرادة التامة مع القدرة تستلزم الفعل ، فيمتنع أن يكون الإنسان محبًا لله ورسوله مريدًا لما يحبه الله ورسوله إرادة جازمة مع قدرته على ذلك وهو لا يفعله ، فإذا لم يتكلم الإنسان بالإيمان مع قدرته دل على أنه ليس في قلبه الإيمان الواجب الذي فرضه الله عليه " .

قال شيخ الإسلام : في عدم تصور هذه الحالة ولا يمكن حدوثها للتلازم بين الظاهر والباطن أصلاً وركنًا : " ولا يتصور في العادة أن رجلاً يكون مؤمنًا بقلبه في الباطن ، مقرًا بأن الله أوجب عليه الصلاة ملتزمًا لشريعة النبي وما جاء به ، يأمره ولي الأمر بالصلاة فيمتنع حتى يقتل ، ويكون مع ذلك مؤمنًا في الباطن ، قد لا يكون إلا كافرًا ولو قال أنا مقر بوجوبها غير أني لا أفعلها كان هذا القول مع هذه الحال كذبًا منه فهذا الموضع ينبغي تدبره ، فمن عرف ارتباط الظاهر بالباطن زالت عنه الشبهة في هذا الباب ، وعلم أن من قال من الفقهاء أنه إذا أقر بالوجوب وامتنع عن الفعل لا يقتل ، أو يقتل مع إسلامه ، فإنه قد دخلت عليه الشبهة التي دخلت على المرجئة والجهمية " ا.ه

ويؤكد شيخ الإسلام على هذا الأصل في أثناء رده على المرجئة فيقول - رحمه الله : " والمرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الإيمان ، فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضًا وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين (فإن الإيمان ليس مجرد التصديق كما تقدم بيانه ، وإنما هو التصديق الإذعاني المستلزم للطاعة والقبول والانقياد بالعلم) ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم : العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وانتفاء الظاهر دليل انتفاء الباطن" ا.ه

ويقول – رحمه الله تعالى رحمة واسعة - أن هذا ممتنع الحدوث في الواقع كما هو غير متصور : " ومن الممتنع أن يكون الرجل مؤمنًا إيمانًا ثابتًا في قلبه بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ويعيش وهو لا يسجد لله سجدة ولا يصوم يومًا من رمضان ولا يؤدي لله زكاة ولا يحج إلى بيته ، فهذا ممتنع ، ولا يصدر هذا إلا مع نفاق في القلب وزندقة لا مع إيمان صحيح " ا.ه

فالإعراض عن العمل بالكلية أو انتفاء الظاهر دليل على انتفاء الباطن من الانقياد

والقبول والتسليم ، وكذلك الامتناع عن فعل الواجبات الظاهرة المتواترة ، وأعظمها الصلاة والزكاة والاجتماع على ذلك المنع سواء من الفرد أو من المجموع ، كل ذلك يدل على فساد الباطن وانتفائه ، فهناك ارتباطًا وثيقًا بين الباطن (قول القلب وعمله) والظاهر (قول اللسان وأعمال الجوارح) فإذا انتفى الظاهر دل ذلك على عدم ما في القلب ، وهذا هو مقصود أهل السنة والحديث حينما يُعرِّفون الإيمان بأنه : قول وعمل ولا ينفك أحدهما عن الآخر ، وقد مر معك تفسير السلف وفهمهم لمعنى القول والعمل ، وكلام شيخ الإسلام متواتر في مؤلفاته ومكرر في أكثر من موضع - وخصوصًا المجلد السابع من الفتاوى الجامع لكتابيه : الإيمان ، والإيمان الأوسط - على التلازم بين الظاهر والباطن وعباراته يوضح بعضها بعضًا من التلازم والضرورة والحتمية . والممتنع والغير متصور ، ثم يصرح أن تارك العمل بالكلية كافر قولاً واحدًا

وهذا مما يدلك على وضوح هذه المسألة عند السلف ولا يوجد فيها خلاف بينهم وهذا . ظاهر جلي في أقوالهم وردودهم على المرجئة والجهمية والفرق الضالة

قول الإمام ابن القيم - رحمه الله - المتوفى سنة 751 هـ في بيان هذا الأصل وتوضيح : قاعدة التلازم بين الظاهر والباطن

" فالإيمان له ظاهر وباطن ، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح ، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته ، فلا ينفع ظاهر لا باطن له ، وإن حقن به الدماء وعصم به المال والذرية ، ولا يجزئ باطن لا ظاهر له ، إلا إذا تعذر بعجز أو إكراه وخوف هلاك ، فتخلف العمل ظاهرًا مع عدم المانع دليل على فساد الباطن وخلوه من الإيمان ، . ونقصه دليل نقصه ، وقوته دليل قوته" ا.هـ

: ويقول - رحمه الله

" والله تعالى أمر عباده أن يقوموا بشرائع الإسلام على ظواهرهم وحقائق الإيمان على بواطنهم ولا تقبل واحدًا منهما إلا بصاحبه وقرينه فكل إسلام ظاهر لا ينفذ صاحبه منه إلى حقيقة الإيمان الباطنة فليس بنافع حتى يكون معه شيء من الإيمان الباطن ، وكل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة لا تنفع ولو كانت ما كانت ، فلو تمزق القلب بالمحبة والخوف ولم يتعبد بالأمر وظاهر الشرع لم ينجه ذلك من النار ، كما أنه لو قام بظواهر الإسلام وليس في باطنه حقيقة الإيمان لم ينجه .من النار" وكما ترى فكلام السلف متفق على هذه الحقيقة لا يختلف

يقول ابن القيم كما قال شيخه- رحمهما الله - في كتابه الصلاة وحكم تاركها : " ومن " أمحل المحال أن يقوم بقلب العبد إيمان جازم لا يتقاضاه فعل طاعة ولا ترك معصية

.

: ويقول ابن أبي العز في شرح الطحاوية

" ولا شك أنه يلزم من عدم طاعة الجوارح عدم طاعة القلب إذ لو أطاع القلب وانقاد لأطاعت الجوارح وانقادت ، ويلزم من عدم طاعة القلب وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة قال : " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " فمن صلح قلبه صلح جسده قطعًا" ا.هـ

والمتأمل في كلام ابن أبي العز يجده هو نفس كلام شيخ الإسلام ابن تيمية بالنص إلا أنه لا يعزوه إلى شيخ الإسلام للواقع الذي كان يعيشه شارح الطحاوية وهذا كثير عنده.

ويقول الشيخ حافظ الحكمي في معارج القبول - رحمه الله – المتوفى سنة 1377 ، وعمره 35 سنة :

" ومحال أن ينتفي انقياد الجوارح بالأعمال الظاهرة ، مع ثبوت عمل القلب للحديث المتقدم (حديث النعمان) ومن هنا يتبين لك أن من قال من أهل السنة في الإيمان هو التصديق على ظاهر اللغة ، أنهم إنما عنوا التصديق الإذعاني المستلزم للانقياد ظاهرًا وباطنًا بلا شك لم يعنوا مجرد التصديق" ا.ه .

وقال الفضيل بن عياض - رحمه الله :

" ميز أهل البدع العمل من الإيمان وقالوا : إن فرائض الله ليست من الإيمان ومن قال ذلك فقد أعظم الفرية ، أخاف أن يكون جاحدًا للفرائض رادًا على الله أمره " ا.ه

ونختم بكلام نفيس للإمام الشاطبي - رحمه الله - يقرر أن الأحكام تجري على الظاهر من إسلام وكفر ، فمن أظهر لنا الإسلام حكمنا بإسلامه وقلنا إنه مسلم ، ومن أظهر لنا الكفر حكمنا بكفره وقلنا أنه كافر ، للتلازم بين الظاهر والباطن مع أن أحكام الدنيا تبنى على الظواهر ، وهناك الفرق بين أحكام الدنيا وأحكام الآخرة ، وليس لنا إلا الظاهر الذي كلفنا الله به وعليه تبني الأحكام من إسلام وكفر ( ).

قال الإمام الشاطبي - رحمه الله :

" ومن هنا جعلت الأعمال الظاهرة في الشرع دليلاً على ما في الباطن ، فإن كان الظاهر منخرمًا حكم على الباطن بذلك أو مستقيمًا حكم على الباطن بذلك ، وهو أصل عام في الفقه وسائر أحكام العاديات والتجريبيات ، بل الالتفات إليها من هذا الوجه نافع في جملة الشريعة جدًا ، والأدلة على صحته كثيرة جدًا ، وكفى بذلك عمدة أنه الحاكم بإيمان المؤمن وكفر الكافر وطاعة المطيع وعصيان العاصي وعدالة العدل وجرحة المجرح ، وبذلك تنعقد العقود وترتبط المواثيق إلى غير ذلك من الأمور ، بل هي كلية التشريع وعمدة التكليف بالنسبة إلى إقامة حدود الشعائر الإسلامية الخاصة والعامة " ا.ه .

ويتضح من كلام السلف أن العلاقة بين الظاهر والباطن مثل العلاقة بين الروح والجسد ، وبين الماء والهواء بالنسبة للإنسان ، ومثل العلاقة بين الظاهر والباطن وارتباط عمل القلب بعمل الجوارح كمثل الشهادتين الألوهية والرسالة ، وكمثل العلاقة بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، فلا يصح إسلام المرء بواحد دون الآخر ، فكذلك لا يصح إيمان من يزعم العمل بقلبه دون جارحته مع انتفاء المانع من ذلك ، ومع قدرته وتمكنه وعدم عجزه وإجماع أهل السنة على ذلك ، ونقل الإجماع من السلف الشافعي ، والبغوي ، وابن عبد البر كما سبق ، وهذا مقرر في كتاب الله في أكثر من موضع ، فإن عدم الظاهر ينفي الإيمان الباطن ، ولهذا ينفي الله الإيمان عمن انتفت عنه لوازمه ، فإن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم ، كقوله تعالى : "

"وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ
وقوله سبحانه : " لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" وغيرها كثير ، فالظاهر والباطن متلازمان ، ولا يكون الظاهر مستقيمًا إلا مع استقامة الباطن وإذا استقام الباطن فلابد أن يستقيم الظاهر ، وتعليل ذلك لأن القلب إذا تحقق فيه من الإيمان الباطن أثَّر في الظاهر ضرورة ، ولا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر ، فالإرادة الجازمة للفعل مع القدرة التامة توجب وقوع المقدور فإذا كان في القلب حب الله ورسوله ثابتًا استلزم موالاة أوليائه ومعادة أعدائه ، فإذا حصلت المودة دل ذلك على خلل الإيمان ولابد ، فما بالك مع الكره والبغض والرد والامتناع والإعراض والصد عن الحق؟ ومن ثم فإنه يمتنع أن يكون الشخص مؤمنًا بالله مقرًا بالفرائض ، ومع ذلك فهو تارك لتلك الطاعات ممتنع عن فعلها وهذا كما مر معك من كلام السلف وفهمهم من أمحل المحال وأنه ممتنع شرعًا وعقلاً للتلازم بين الظاهر والباطن.

خلاصة الكلام في قاعدة التلازم بين الظاهر والباطن
من كلام شيخ الإسلام في المواضع السابقة وغيرها كثير ، ومن كلام غيره من أئمة السلف الصالح أهل السنة والجماعة نستطيع أن نخرج بعدة أمور هامة تتعلق بهذه القاعدة ، قاعدة ارتباط الظاهر بالباطن والعلاقة بينهما عند أهل السنة والجماعة :
أولاً: أن الإيمان أصله في القلب ، وأصل الإيمان الذي في القلب هو قول القلب وعمل القلب من الإذعان والانقياد والقبول ، وقول القلب المجرد ليس هو المعرفة والعلم والتصديق فقط بل لابد فيه من الانقياد الإذعاني بالطاعة.
ثانيًا: أن الإيمان وإن كان أصله في القلب من قول وعمل ، إلا أن لوازم ذلك من قول وعمل الجوارح لابد من تحققها في الظاهر ، إذا تحقق ملزومها الذي في القلب ، فالظاهر لا يتخلف عن باطنه ولا يضاده أبدًا ، وهذا محال وممتنع ولا يتصور حدوثه.
ثالثًا: كلما حسن الملزوم الذي في القلب كلما حسن اللازم الذي في الظاهر ، والعكس صحيح فكلما فسد الملزوم فسد اللازم فإنه يلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح إذ لو أطاع القلب وانقاد لأطاعت الجوارح وانقادت كما يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله -
رابعًا: الإيمان عند أهل السنة يطلق على الملزوم الذي في القلب - وعلى اللازم الذي في الظاهر على الأصل والفرع ، الظاهر والباطن ، فهو حقيقة مركبة كما مر معك من كلام السلف.
خامسًا: أن الظاهر أساسًا مرتبط بعمل القلب من الإذعان والمحبة والخشية والتوقير أكثر مما يرتبط بقول القلب من علم ومعرفة وتصديق ، فإن الرجل قد يكون عالمًا

ومصدقا ومفتقدًا للحق الذي جاء به الرسول ولكن خشية الله في قلبه والخوف منه ومحبته ومحبة رسوله توقيره والانقياد له ، لم تصل في قلبه إلى الدرجة التي تنجو به من ظلمات الكفر والشرك ، فالمشركون مثلاً معهم بعض المحبة وبعض الطاعة وبعض الخوف ولكن هذا لا ينفعهم شيئًا ، فإن حبهم لأندادهم وطاعتهم لهم وخوفهم منهم يطغى على ما في قلوبهم من محبة الله وطاعته وخوفه ، بل ما في قلوبهم من الحسد والكبر وحب الشهوات والمصلحة الدنيوية العاجلة ، جعل ما في قلوبهم من التصديق والعلم والمعرفة وبعض عمل القلب لا قيمة له ولا نفع فيه ، فلا يدخلون بذلك في دين الله بالرغم مما في قلوبهم من التصديق كما حصل لأبي طالب فلابد مع التصديق من الانقياد والقبول والطاعة بالعمل.

سادسًا: الإيمان : ظاهر وباطن ، والمطلوب شرعًا : هو الظاهر والباطن وكلاهما إيمان ، وكذلك الكفر : ظاهر وباطن ، والمحظور شرعًا : هو الظاهر والباطن وكلاهما كفر ، فكما نُسمِّي الظاهر إيمانًا ونحكم على صاحبه بالإيمان ظاهرًا وباطنًا ، فكذلك نُسمِّي الظاهر كفرًا ونحكم على صحابه بالكفر ظاهرًا وباطنًا ، لأنه ليس لنا إلا الظاهر وليس لنا أن نطلع على بواطن الأمور وسرائر الناس - فهذا لله علام الغيوب ، ولما كان الظاهر انعكاسا للباطن وصورة مباشرة له ، فقد جعل الله ظاهر الناس دليلاً على بواطنهم لتعاملاتهم بعضهم مع بعض ، فإن أظهروا الخير حكم لهم بالخير ظاهرًا ، وإن أظهروا الشر حكم لهم بالشر ، وهذا الذي بنى الله عليه أحكام الدنيا فهي تجري على الظاهر من إسلام وكفر - كما مر معك من كلام الشاطبي وغيره.

سابعًا: هناك ترابطًا وثيقًا بين الباطن قول القلب وعمله ، وبين الظاهر قول اللسان وأعمال الجوارح ، فإذا انتفى الظاهر وانعدم دل ذلك على انتفاء وانعدام ما في القلب ، وإذا نقص دل على نقص ما في القلب ، وكذلك العكس ، فكل منهما يؤثر في الآخر ، لكن القلب هو الأصل وأعمال الجوارح دليل وشاهد عليه ، وهذا هو مقصود أهل السنة والحديث حينما يُعرِّفون الإيمان بأنه : قول وعمل لا يغني ولا يصح ولا ينفع ولا يتم ولا يجزئ أحدهما عن الآخر.

ثامنًا: قد تبين أن الدين لابد فيه من قول وعمل وأنه يمتنع أن يكون الرجل مؤمنًا بالله ورسوله بقلبه أو بقلبه ولسانه ولم يؤدِ واجبًا ظاهرًا ، ولا صلاة ولا زكاة ولا صيامًا ولا غير ذلك من الواجبات ، ولو قدر أنه يؤدي الواجبات لا لأجل أن الله أوجبها مثل: أن يؤدي الأمانة ، أو يصدق الحديث ، أو يعدل في قسمه وحكمه ، من غير إيمان بالله ورسوله لم يخرج بذلك من الكفر ؛ فإن المشركين وأهل الكتاب يرون وجوب هذه الأمور ، فلا يكون الرجل مؤمنًا بالله ورسوله مع عدم شيء من الواجبات التي يختص بإيجابها محمد كما يقول شيخ الإسلام .

تاسعًا: غلط الجهمية الذين زعموا أن الإيمان مجرد معرفة قلبية بالله تعالى ، وإن لم يكن هناك قول ولا عمل ، وقد ردَّ أبو عبيد القاسم بن سلام هذا القول ووصفه بأنه منسلخ من قول أهل الملل الحنيفية لمعارضته لكلام الله ورسوله بالرد والتكذيب ثم قال : ولو كان أمر الله ودينه على ما يقول هؤلاء ما عُرِفَ الإسلام من الجاهلية ، ولا

فرقت الملل بعضها من بعض ، إذ كان يرضى منهم بالدعوى في قلوبهم من غير إظهار الإقرار بما جاءت به النبوة.

عاشرًا: غلط الماتريدية الذين ادعوا أن قول اللسان ركن زائد ليس بأصلي ، وإنما هو شرط لإجراء الأحكام الدنيوية حتى قالوا : ومن صدق بقلبه ولم يقر بلسانه فهو كافر عندنا ، وعند الله تعالى مؤمن من أهل الجنة ، وهذا هو قول المرجئة المعاصرة فإن عموم المرجئة اتفقوا على إخراج العمل عن مسمى الإيمان حتى قال قائلهم من حصل له حقيقة التصديق فسواء أتى بالطاعات ، أو ارتكب المعاصي فتصديقه باق على حاله ، وهو ناج في الآخرة من الخلود في النار ، وهذا غلط فاحش كما مر معك ، والتصديق المجرد عن الإذعان والانقياد لا نفع فيه ولا فائدة منه كما حصل لفرعون وإبليس وأبي طالب واليهود ، وهؤلاء المرجئة لم يفرقوا بين جنس العمل والذي يعد شرطًا في صحة الإيمان عند أهل السنة ، وبين أداء العمل وأفراده والذي يعد تاركه غير مستكمل للإيمان .

ولذلك فإن قول المرجئة المعاصرة أن تارك أعمال الجوارح بالكلية مع القدرة والتمكن وعدم العجز مسلم ناجٍ من الخلود في النار وهو تحت المشيئة ، وإن كفرناه في الدنيا وحكمنا بكفره ؛ هو في الحقيقة قول الجهمية وليس قول مرجئة الفقهاء ، ومرجئة العصر وافقوا كل فرق المرجئة السالفة في خروج العمل من مسمى الإيمان ، والخلاف لفظي بين مرجئة العصر وبين المرجئة القديمة لأن النتيجة واحدة ، ولا ينفع هؤلاء قولهم الإيمان قول وعمل ، ولا ينفعهم موافقتهم لأهل السنة في المسمى والتعريف وتلبسهم بلباس السلف والسلفية ، فإن السلف كما مر معك يقولون إن الإيمان اعتقاد وقول وعمل .. حقيقة مركبة واقعية ، وأن تارك أعمال الجوارح بالكلية مع القدرة كافر خارج عن الإسلام .

وقد مر معك تواتر هذا القول عنهم والإجماع على ذلك ، وأن العمل من الإيمان وركن فيه ولا يصح ولا ينفع ولا يجزئ إيمان القلب من القول والعمل بدون عمل الجوارح ، وإن قال لا إله إلا الله ولم يعمل بمقتضاها واكتفى بمجرد النطق بها أو عمل بخلافها فإنه يحكم بردته ويعامل معاملة المرتدين ، وإن عمل بمقتضاها في شيء دون شيء فإنه ينظر : فإن كان هذا الذي تركه يقتضي تركه الردة ، فإنه يحكم بردته كمن ترك الصلاة متعمدًا ، أو صرف أيًا من أنواع العبادة لغير الله تعالى ، هذا فهم السلف لهذه القاعدة ، ولولا خشية الإطالة والخروج عن حد الاختصار وهي " تنبيهات مختصرة " لنقلت كل أقوال السلف في ذلك وهي كثيرة متواتر والحمد لله

أبو سلمان الغليفي من كتاب التنبيهات